تطور المفهوم من المكان إلى الفضاء

إن استعمال الفضاء كمكون للرواية يتعدى مجرد الإشارة إلى المكان، لأن الفضاء يعمل على خلق نظام خاص داخل النص، و لأنه يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالإشارة التشخيصية، و لهذا يلزم القارئ القدرة على تصور فضاء نصي مغاير للفضاء المرجعي، و هو ما اختلف حوله النقاد في تحديدهم لمفهومات المكان، فهو عند حميد الحميداني الفضاء، و عند عبد المالك مرتاض الحيز، وفي اللغة الفرنسية Espace، و في اللغة الانجليزية Space ...الخ.

إذن فما هو المكان؟

1- مفهوم المكان:

ذهب "أنشتاين" في تصوره للمكان «بأنه كان مسبوقاً "بالموضع" و يسهل فهمه سيكولوجياً "الموضع"، و يدل أولاً على قطعة (صغيرة) من المساحة الأرضية و التي نعطيها اسماً ما. إن الشيء الذي يخصصه "الموضع" هو ما نسميه "الشيء المادي" الجسم»([1]). و من هنا فهل لكلمة "موضع" معنى مستقل عن الشيء المادي؟

إن الإجابة بالنفي تحيل إلى أن المكان أو (الموضع) ليس سوى نوع من نظام للأشياء المادية، و منه فلا يمكن الحديث عن مكان فارغ، إذ ليس لهذا معنى، و هو نفس الرأي الذي ذهب إليه "ديكارت"، الذي يقول: «المكان متماه بدون أجسام؛ أي ليس هناك مكان فارغ»([2]).

و قد ذهب أرسطو في تمييزه بين المكان و الفضاء إلى حسم الأمر نظرياً، «لكنه ملتبس عند التطبيق. ففيما يُعتبر "المكان" الحدود الحافة بموضوع محتوىً، يعد الفضاء الحدود الداخلية للوعاء المحتوى، قد يزول مكان الشيء، لكن فضاءه لا يمكنه ذلك. و بحسب أرسطو في "الفيزياء"، قد تحتل الشخصية دائماً فضاءً، غير أنها لا تحتل نفس المكان دائماً.» ([3])

أما "أنشتاين" فقد برهن على ذلك بقوله: لنفترض أن هناك صندوقاً نستطيع أن نضع فيه

---

[1] – فرانسواز باليبار، أنشتين غاليلو و نيوتن (لمكان و النسبية) تر: سامي أدهم، المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر والتوزيع، لبنان، ط1، 1993، ص: 112.

[2] – المرجع نفسه، ص: 112.

[3] – جوزيف. إ. كيسنر، شعرية الفضاء الروائي. تر: لحسن احمامة، أفريقيا الشرق، المغرب، دط، 2003، ص: 20.

حبوب الأرز و الكرز - (من واقع أننا نستطيع وضع حبوب الأرز و الكرز) فالمقصود هنا خاصة يجب أن تعتبر هذه الحبوب كذلك حقيقية كالصندوق ذاته، لا لشيء يمنع أن ندعو هذه الصفة "مكان" الصندوق، و يوجد فضلاً على ذلك صناديق أخرى من نفس النمط و التي لها إذن (مكان) من نفس المقدار، و من خلال تعرضنا للصندوق كمكان يتبن لنا مفهوم المكان المطلق، و بهذا المفهوم للمكان فإن معنى الكلمة "مكان" يتخلص من كل رابط، من كل نوع من الأشياء المادية الخاصة، ونصل هكذا بواسطة التعميم إلى طبيعة تصور المكان المستقل (المطلق)، و التحديد اللامتناهي، والذي توجد فيه كل الأشياء المادية، و بعدها فليس من الممكن تناول شيء مادي لا يكون موضوعاً في المكان؛ و على العكس، فمع هكذا تصور للمكان، فإن فكرة إمكان وجود فراغ تصبح معقولة تماماً، و من خلال هذه التحديدات نصل إلى أن هناك مفهومين للمكان؛ الأول حيث يدونه أنشتاين بـ: (أ) و الذي لا يوجد فيه المكان إلا بالأشياء الموجودة فيه، وحيث يوجد المكان و المادة مرتبطين بدون أي تفكك (حتى أنه لا يوجد مكان فارغ)؛ و الآخر مدون بـ : (ب) حسب "نيوتن" و فيه الأشياء المادية التي لا توجد إلا في المكان، و من ثمّ فالمكان سابق عليها، و في هذا المفهوم الأخير، فالمكان تقريباً هو شكل العالم، و المادة تكون جوهره، و منه فالمفهوم (أ) يدل على صفة طوبولوجية(*) لعالم الأشياء، أما المفهوم (ب) فالمكان هنا هو وعاء كل الأشياء المادية. من هنا و من خلال المفهوم (أ) لا يمكن فهم المكان بدون شيء مادي. أما في المفهوم (ب) فإن الشيء المادي لا يمكن أن يفهم إلا بوجوده في المكان، و بالتالي يصبح المكان حقيقة تتعالى على العالم المادي. الهدف منها فهم تجاربنا الحسية(1). و المكان في الرواية ليس مجرد عنصر مضاف «للأحداث و إنما هو تقنية تتجسد من خلالها وحدة الأثر، و تتشكل ملامح الرواية التي بها يتنزل العمل الأدبي في سياق الأنساق الحافة به آن إبداعه و آن قراءته. و بهذا فإن المكان يعد مدخلاً أساسياً يساعدنا على تبين مقروئية النص و ما يشده إلى الحياة من صلات.»(2)

و يضيف "أنشتاين" على أن سرعة الضوء تحتفظ بقيمة ثابتة و يشار إليها على أنها تحتل مكاناً و أنها في «الواقع سمة للمكان (...) مرتبطة بوضوح على واقع أن المكان الفارغ ليس له

* – الطوبولوجيا هي دراسة تهتم بالتحليل و التصنيف على أساس الأنواع و الفئات.

1 – ينظر فرانسواز باليبار، أنشتاين، غاليلو و نيوتن المكان و النسبية. م، س، صص: 113- 114.

2 – محمد القاضي، في حوارية الرواية (دراسة في الرواية التونسية)، دار سحر للنشر، تونس، دط، 2005، ص: 163.

حقيقة لكنه هو دائماً مكان الحقول الكهرومغناطيسية حيث الضوء ليس سوى حالة خاصة»([1]).

أما "ميخائيل باختين" فيختلف مع "ميشال بوتور" الذي يرى أن المكان «هو البيت وموجوداته (الأثاث) أو المكان المرتفع، و المنخفض، و ما يحيل عليه من قيم الرفعة و الوضاعة، أو هو الـ "هنا"، الـ "هناك" في علاقتهما بالمتخيل. بل إن المكان هو علاقة تقاطعية لا ينفصل عنه زمانه»([2])، و هو ما ذهب إليه "أنري ميتران" في أن البنية الزمنية، و البنية المكانية بنيتان جوهريتان في الرواية([3]).

و إذا كنا سنتناول الفضاء "الحميم" و الفضاء "المعادي" على حدٍ سواء فإننا نود قبل ذلك أن نتساءل عن الكيفية التي تحول فيها المصطلح من المكان إلى الفضاء، و خاصة بعد شيوع مصطلحات كثيرة، مثل: (المكان، الفضاء، الحيز، الفراغ...الخ) و استعمالها استعمال المترادفات، إذ نجد كلمة Espace تقابلها الفراغ أو الفضاء، و منه يبدو أن المكان أكثر تحديداً من الفضاء الذي يشير إلى شيء من الاتساع و اللامحدودية، مع عدم الفصل بينهما، لأن الفصل يعمل على إدماج الأرض و السماء.

أما "أبراهام. أ. مول" و "إليزابيث رومر" فقد ذهبا إلى أن الإنسان (الأنا) هو مركز العالم، و أن المكان يحيط به من جميع جوانبه و بطبيعة الحال فعلاقة هذا الأنا التي تحتل النواة بالمكان تتغير بتغيير الواقع، فترغب أحياناً في اختراق الكثير من القواقع، و تتوغل في المكان البعيد، وأحياناً أخرى تفضل المكوث في المكان القريب، و أن حرية الإنسان بالتصرف في المكان تختلف بالتأكيد من محيط لأخر، و انطلاقاً من هذا يقسم الباحثان الأمكنة إلى أربعة أنواع حسب حرية المرء، وهي:

1- "عندي" و هو المكان الحميم.
2- "عند الآخرين" و هو يشبه الأول، لكن الإنسان يحس فيه بأنه خاضع لسلطة الغير.
3- "الأماكن العامة" و هي أماكن تخضع للسلطة العامة.
4- "المكان اللامتناهي" و هو المكان الذي نستطيع أن نمثل له بالصحراء التي لا تكون ملكاً لأحد، و السلطة بعيدة عنها.

2- أنواع المكان:

---

[1] – فرانسواز باليبار، م، س، ص: 118.

[2] – يمنى العيد، في مفاهيم النقد و الحركة الثقافية، دار الفارابي، لبنان، ط1، 2005، ص: 66.

[3] – Voire :Henri Mitterand, *chronotopies romanesques, In poétique*, n° 81, Février1990, Seuil, p. 89.

سنتحدث عن المكان لا من حيث سلطة المرء فيه كما رأينا مع "أبراهام" و "إليزابيث"، ولكن من حيث وجود الإنسان فيه سواء كان هذا الوجود حقيقياً أم مجازياً، و من هنا فإن المكان الذي نتحدث عنه يشمل ثلاثة أنواع، و هي:

1/2- **المكان الطباعي**: و نقصد به المكان الذي يحتله النص على الصفحة، و يدخل ضمن المكان الطباعي ما له علاقة بالنص و بطريقة عرضه على الصفحة البيضاء بدءاً بحجم الكتاب مروراً بالورق و نوعيته، و مختلف التقنيات الطباعية التي يوظفها (الكاتب) في تنظيم صفحات الكتاب، من بياضات و حواش و ألوان و انتهاء بالغلاف و ما يحويه من رسوم و ألوان ، و من هنا كان هذا النوع -من الأمكنة- عبارة عن هيئة محسوسة بواسطة العين التي لها الدور في إنتاج الدلالة النصية.

2/2- **المكان الجغرافي**: و هو المكان الذي تدور فيه الأحداث و يتم إدراك جذوره بعد أن يذكر داخل العمل من قبل الكاتب، و لهذا النوع من الأمكنة أبعاد نفسية و اجتماعية و عقائدية. و منه أشار "غاستون باشلار" إلى قضية مهمة، و هي أننا نرغب حقاً في معالجة شعرية المنزل، فلا يجب أن ننظر إلى هذا الأخير باعتباره شيئاً و نخضعه للوصف الظاهري و بذلك لا يتعلق الأمر بوصف المنزل من خلال مظاهره الرائعة ([1])، و لكن ينبغي تجاوز قضايا الوصف من أجل الوصول إلى السمات الأولى التي تكشف الارتباط بالمنزل، و منه لابد أن يعاش المكان كتجربة لا كوصف، و لذا تتم الكتابة بنجاح ما لم نعان من هذا المكان، و نشير إلى أن المكان الجغرافي بدوره ينقسم إلى أقسام أخرى يمكن أن ندرجها من بعد.

3/2- **الفضاء الدلالي**: و هنا نطرح السؤال التالي: لماذا الفضاء الدلالي بدل المكان الدلالي؟

إن الفضاء يدل على الاتساع، و أنه لا وجود لمكان تختبئ فيه الدلالة في النص الأدبي، ولهذا جاء استعمالنا لمصطلح الفضاء، و لا يتم تشكل البنية الدلالية إلا «بتضافر جميع بنى النص الخفي منها و الظاهر التي يبنيها القارئ كما أسلفنا، حيث يدخل تكوينه المعرفي و الفني في علاقة مع النص»([2]) و تتمثل هذه البنى، في "البنية الصوتية" التي تتعلق بالجانب الصوتي للنص، و "البنية المعجمية" التي تتعلق بالجانب اللفظي، في حين تتعلق "البنية التركيبية" بالجمل و التراكيب، ويضاف إلى كل هذا الجانب الطباعي، إلى « أن القارئ هو الفضاء الأكبر الذي ترتسم فيه كل(...)

[1] - ينظر فتيحة كحلوش، بلاغة المكان (قراءة في مكانية النص الشعري)، مؤسسة الانتشار العربي،لبنان،ط1،2008،ص: 18-24.

[2] - المرجع نفسه، ص: 26.

الاقتباسات التي تتألف منها الكتابة دون أن يُضيّع أيا منها و دون أن يلحقه التلف. بحيث إن القارئ وحده يستطيع أن يتلاقى مع النصوص التي حضرت فيه. و وحده ينفعل مع تلك المراكمات للنصوص السابقة، التي قد شكلت وعيه بحس أدبي معين»([1]). وهذا يعني أن هناك فضاء واسعاً للقراءات التي تختلف باختلاف المستويات و الأيديولوجيات، و التي تختلف و العمليات الحسابية التي تخضع للنتائج الدقيقة و المنطقية.

3- وظيفة المكان:

يُتطلب من المبدع في بداية إبداعه أن يخلق عالماً خيالياً يرتبط بعالم الواقع من خلال الأحداث التي يقدمها، و يحاول بشتى الطرق «أن يخلق إيهاماً بواقعية عالمه الخيالي وصدقه، فيصور المكان الذي يشهد أحداث قصته و يخلق الجو أو الخلفية المناسبة و يكشف ما لهذا من أثر في الشخصيات و تطور الحدث. و في هذا كله يعتمد المؤلف على قدرته في تشكيل رؤاه الإبداعية»([2])، فوصف المكان لم يأت هكذا و إنما له دور مهم، لأنه جزء مهم يدخل في تقديم الأحداث و الإعداد لها، و يعمل على إظهار ما يدور بداخل الشخصيات، ذلك أنه كثيراً ما يعكس خواطر الشخصيات و أحاسيسها، سواء كان ذلك حزناً أم فرحاً.

و قد ذهب النقاد إلى تصنيف المكان حسب الآتي:

أ/ المكان المفتوح / المكان المغلق.

ب/ المكان المتصل / المكان المنفصل.

ج/ المكان القريب / المكان البعيد.

ج/ المكان المرتفع / المكان المنخفض.

4- مفهوم الفضاء:

أما تحليل الفضاء فيقتضي منا تحديد المفهوم بدقة متناهية و تجريده من العمومية و الغموض الذي يحيط به، فهل الفضاء هو المكان الجغرافي (Espace Géographique) كما يسميه "بورنوف"؟. أم هل هو الفضاء النصي (Espace Textuel) كما يراه "ميشال بوتور"؟. أم هو الفضاء الدلالي (Espace

[1] - حسين علام، العجائبي في الأدب (من منظور شعرية السرد)، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2010، ص: 81.

[2] - أوريد عبود، المكان في القصة القصيرة الجزائرية الثورية، م، س، ص: 144.

Cémiantique) كما يحدده "جيرار جينيت"؟. أم هل هو الفضاء كرؤية؟ أم أن كل هذه الفضاءات يمكن أن تحدد مع بعضها على صورة تكاملية و تشكل في النهاية، فضاء الرواية.

إن الإجابة عن هذه الأسئلة تقتضي منا تحديداً و توضيحا دقيقاً لهذه المفاهيم التي اختلف حولها النقاد و لعل من بينها:

1/4- **الفضاء الجغرافي**: و يقابله المكان الجغرافي.

2/4- **الفضاء النصي**: و يقابله المكان الطباعي.

3/4- **الفضاء الدلالي**: و يقابله الفضاء الدلالي. و هو عند "جيرار جينيت" ذلك الفضاء الذي يتأسس بين المدلول المجازي، و المدلول الحقيقي([1]).

تتقارب هذه المفاهيم من خلال ما تمّ دراسته في تحديداتي لكل من المكان و الفضاء، لكن هناك عنصران آخران لم تشر إليهما الدراسات إلا قليلاً، و هما:

4/4- **الفضاء كمنظور**: و هذا النوع من الفضاء يعتمد على سيطرة الكاتب على عالمه الحكائي بما فيه من شخصيات، و رواة، و ذلك من خلال رؤية الكاتب لهذا العالم، و وجهة نظره، و منه تمّ اعتماد وضعية المتكلم و تحركاته في تحديد الفضاء، لأن هذه الوضعية هي التي تكسب الفضاء مشروعيته، إذ لا يوجد فضاء إلا بالمسارات التي يرسمها الإنسان، و لا وجود للمجالات الطبيعية إلا بوجود الذات التي تعمر هذا المجال، حيث يرى الإنسان أنه هو المركز الذي يدرك من خلاله الفضاء. أما الباقي فهو امتداد لذاته، هذه الذات التي وجدت لتملأ الفضاء، ذلك أن الدليل على الوجود هو ملء الفضاء، و معنى ذلك أن تحديد الفضاء يكون عن طريق وجود هذه الذات التي تعمل على قياس هذا الفضاء «لأن الانطلاق من مكان الذات المدركة لتحديد الفضاء القريب والبعيد، الأليف و الغريب، هو إقرار بضرورة التبئير، إذ يستحيل تحديد مكان ما دون اعتباره مركزاً للذات، أو محيطاً لها»([2]).

5/4- **الفضاء الروائي**: و هذا النوع من الفضاء يتعلق باللفظ، و «يتضمن كل المشاعر

[1] – ينظر فيصل الأحمر، معجم السيميائيات، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2010، ص: 129.

[2] – رشيد نظيف، الفضاء المتخيل في الشعر الجاهلي، م، س، ص: 46.

والتصورات المكانية التي تستطيع اللغة التعبير عنها»([1]). إن هذا الفضاء هو المظهر التخييلي أو الحكائي، الذي يتعلق بالحدث الروائي، و زمن القصة، و بالشخصيات التخييلية، و أن هذا الفضاء لا يوجد إلا من خلال اللغة، و من خلال الكلمات المطبوعة في الكتاب، و «لا يدرك إلا من خلال الملفوظ القصصي، فهو يملك صبغة استثنائية في الرواية؛ ينزاح عن المكان المعتاد الذي يعيش فيه ليتشكل كعنصر من بين العناصر المكونة للحدث الروائي»([2])، كما أنه يساهم في تطوير العقدة، باعتباره أحد العناصر الفاعلة في المغامرة المحكية، و هو الذي يحفز الشخصية على القيام بالأحداث و على الفعل القصصي. و أنه ينشأ من خلال وجهات نظر متعددة لأنه يعاش على عدة مستويات: من طرف الراوي، ولغته، و من طرف الشخصيات، و من خلال اللغة، «و معنى ذلك أن اللغة الروائية تقوم بتعويض الفضاء المجسم بفضاء لغوي ينطوي على حرارة التجسيد بواسطة المفاهيم المكانية Concepts spatiaux.» ([3])

من خلال هذه المقاربة، أقول: إن مصطلح الفضاء أوسع من أن يختصر في هذه التعريفات، باعتباره يرتبط بالوجود، و لذلك فنحن مطالبون بتحديد كل الذي توصلنا إليه من استقصاءات حول قضية الفضاء، باعتباره أوسع من المكان الذي يعتبر مكونا للفضاء، و« لما كان هذا المكان دوماً متعدد الأوجه و الأشكال، فإن فضاء الرواية هو الذي يلفها جميعاً. إنه الأفق الرحب الذي يجمع جميع الأحداث الروائية، فالمقهى، و الشارع، و المنزل و الساحة، كل واحد منها يعتبر مكاناً محدداً، إذا كانت الرواية تشمل هذه الأشياء كلها فإنها تشكل شيئاً اسمه فضاء الرواية»([4]).

نلاحظ هناك علاقة وطيدة بين التجليات الثقافية المختلفة و الفضاء، حيث« تتخذ هذه التجليات أشكالاً مكانية مختلفة، و تتخذ لنفسها مساحة داخل الفضاء الثقافي، و هنا يجب أن نفرق بين مفهوم الفضاء باعتباره محيطاً ثقافياً يحيط بالنص و يتناول عناصر مكانية و جمالية مختلفة و جمعه أفضية، و المكان باعتباره الموضع الفيزيقي الطوبولوجي، أي المكان الجغرافي المحدد والهندسي المحدد»([5])، و إذا نظرنا إلى النص بوصفه جسدا فيزيقيا و تأملنا فيه، فإننا نجده يحتل مكاناً محدداً على

---

[1] – فيصل الأحمر، معجم السيميائيات، م، س، ص: 129.

[2] – حسين علام، العجائبي في الأدب، م، س، ص: 159.

[3] – عبد السلام أقلمون، الرواية و التاريخ (سلطان الحكاية و حكاية السلطان)، دار الكتاب الجديد، لبنان، ط1، 2010، ص:213.

[4] – إبراهيم عباس، تقنيات البنية السردية في الرواية المغاربية، المؤسسة الوطنية للاتصال، النشر و التوزيع، الجزائر،دط،2002،ص:33.

[5] – حسين خمري، نظرية النص(من بنية المعنى إلى سيميائية الدال)، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2007، ص:99.

الورق الذي يحتضنه، « و هذا يتجلى من خلال موضعة مواده اللغوية، و تقطيعه وتموضع الكلمات و الجمل على الصفحة، و هو عمل هندسي حقيقي»([1])، ذلك أن تتابع الجمل والكلمات يشكل فضاء معينا.

لم يعرف البشر في السابق الحاجة إلى أن يأخذوا في الحسبان الفضاءات الأوسع و الفترات الزمنية الأطول، إلا عندما كثر العدد، و أصبحوا يعيشون في جماعات أكثر اتساعاً، و أعلى اندماجا. و منه فإن إحراز معرفة القراءة و الكتابة قد وسم مرحلة هامة في تطور القدرة على التفكير المجرد، حيث «كان ازدياد إدراك البشر للفضاء أو كما يمكن أن نقول، لمعنى الجغرافية، تابعاً إلى حد كبير للازدياد في مدى الوحدات السياسية. فكما رأينا، طالما كان البشر يعيشون في مجتمعات قبلية كان فهمهم للفضاء محدوداً بأراضٍ صغيرة جداً. لم تخضع المفاهيم العامة للفضاء لتوسع ملحوظ إلا مع ظهور الدول المتحضرة»([2]).

إن فهم الفضاء جاء مع التوسع الأكثر درامية، و مع الاستكشاف الواسع «منذ القرن السابع عشر فصاعدا لبقاع الكون الأكثر اتساعاً بشكل مضطرد بواسطة علم الفلك، و تشكل الكوزمولوجيا([*]) الحديثة في عصرنا إلى تصور المدى الكامل للزمن بالعودة إلى الثانية الأولى بعد الانفجار الكبير، و بالامتداد باتجاه الخارج نحو حافة الفضاء الخارجي»([3]).

أما حسن نجمي فقد انطلق في تحديده للفضاء من خلال كتابه "شعرية الفضاء" من مؤاخذة غالب هلسا حين ترجم كتاب "غاستون باشلار" (جماليات المكان)، في أنه ارتكب خطأ في الترجمة، حيث يقول: من ثمّ انطلقت الجناية التي يبدو أنها لم تتوقف حتى الآن، حيث ظل يختلط مفهوم الفضاء بمفهوم المكان مع أن الفضاء غير .. و المكان غير. و يضيف قائلاً: لقد تعلمنا من "جوزيف فرانك" أن الفضاء في الخطاب الروائي يمكنه أن يشكل المادة الجوهرية للكتابة، حيث تمّ تأكيد مفهوم الفضاء كسند (Support)([4]) أساسي للعمل السردي، بل و هوية من هويات النص لا يمكن اختزالها. ويضيف قائلا: أن دراسة الفضاء لا ترتكز على وصف الفضاء كأمكنة «تدور فيها الأحداث والوقائع

[1] – حسين خمري، نظرية النص(من بنية المعنى إلى سيميائية الدال)، م، س، ص: 99.

[2] – غراهام كلارك، الفضاء و الزمن و الإنسان. تر: عدنان حسن، دار الحوار، سورية، ط1، 2004، ص: 113.

[*] – الكوزومولوجيا: علم الكونيات؛ يبحث في أصل و نشأة الكون و تركيبه.

[3] – غراهام كلارك، الفضاء و الزمن و الإنسان، م، س، ص: 257.

[4] – ينظر حسن نجمي، شعرية الفضاء (المتخيل و الهوية في الرواية)، م، س، صص: 6-7.

الحكائية أو تتمركز حولها الفاعلية الشعرية، بل الفضاء كوعي عميق بالكتابة جمالياً وتكوينياً. الفضاء كشكل ومعنى. الفضاء كذاكرة و هوية و وجود، الفضاء كسؤال إشكالي ملتصق بوعينا الثقافي و الاجتماعي والجمالي و بنسيجنا السيكولوجي و المعرفي والأيديولوجي»([1]).

أما "فتغنشتاين" فقد ذهب إلى القول: أن «كل شيء هو إنجاز القول، في فضاء من حالات أشياء ممكنة. هذا الفضاء أستطيع تخيله خالياً، لكنني لا أتصور شيئاً من دون فضاء، ذلك أنه من غير الضروري أن تكون بقعة حمراء في مجال النظر حمراء، و لكن يجب أن يكون لها لون: فلنقل إنها تحمل حولها فضاء الألوان. و أن الصوت يجب أن يكون له ارتفاع، و الشيء الملموس يجب أن تكون له صلابة، و انطلاقاً مما ذُكر، يقول: "فتغنشتاين" أن النقطة الفضائية هي مكان خاو يمكن أن يشغل أو لا يشغل في شبكة ما([2]).

في حين يقول "يوري لوتمان": أن نشأة الفضاء ترجع إلى ثنائيات الضدية التي تتمثل في (الداخل / الخارج)، (الفوق / التحت)، (الأمام / الخلف)، و ما دمنا نركز على الفضاء الروائي دون غيره فلا شيء في الرواية يتميز بالاستقلالية عن البنية المكانية، كما أن كل مكونات السرد تصبح تعبيراً عن كيفية تنظيم الفضاء الروائي، و أن أول فضاء يمكن أن نتحدث عنه في هذا المجال هو فضاء اللغة نفسها، « فالملاحظ أن اللغة غالباً ما تبدو بطبيعتها، أكثر اقتداراً على "ترجمة" العلاقات الفضائية، من أي نوع آخر من العلاقات (...)، مما يجعلها تتوسل العلاقات الأولى رموزاً واستعارات تعبر بها عن العلاقات الثانية؛ أي أن ذلك يؤول باللغة إلى تفضيء كل شيء، أو معالجته معالجة فضائية»([3]) ، و قد ذهب "جيرار جنيت" إلى القول: أنه يمكننا «أن نعتبر فضائية الكتابة الظاهرة رمزاً لفضائية اللغة العميقة. و على كل حال، فإن الصيغة الفضائية للأدب عندنا نحن الغربيين الذين نعيش حضارة لا يقوم فيها فصل بين الأدب و المكتوب، (...) فلقد تعلمنا منذ "مالارميه"، أن نتعرف على الوسائل المدعاة بصرية (...)، و أعني بتلك الوسائل البصرية شكل الخط و تنظيم الصفحات، و هيأة الكتاب في كليته، و لقد صرنا من هذا المنظور الجديد أكثر تنبهاً إلى فضائية الكتابة، و ترتيب الأدلة و الكلمات و الجمل والخطاب ترتيباً لا زمنياً»([4]) لنخرج بعد

[1] - حسن نجمي، شعرية الفضاء (المتخيل و الهوية في الرواية)، م، س، ص: 12.

[2] - ينظر جيل غاستون غرانجي، فكر الفضاء. تر: علي دعيبس، المنظمة العربية للترجمة، لبنان، ط1، 2009، ص: 12.

[3] - جينيت و آخرون، الفضاء الروائي. تر: عبد الرحيم حزل، أفريقيا الشرق، المغرب، دط، 2002، ص: 13.

[4] - المرجع نفسه، ص: 14.

ذلك مما يسمى نصاً.

إن مفهوم الفضاء هو حصيلة تطور تاريخي، ذلك أنه من «الواضح أن الفضاء ليس من المعطيات الأولية الراسخة في ثقافتنا العربية بل كانت و لا تزال للزمن مكانة الصدارة في الوعي العربي، كما هو واضح كذلك عدم إدراك مستويات التبادل الوظائفي بين الفضاء و الزمن لدى الإنسان العربي»([1])، لأن الفضاء أخذ الكثير من التسميات لدى الفلاسفة العرب حيث عرف بـ:« المكان، و الخلاء، و الملأ، و الأين، في بعديه الميثولوجي و الفلسفي ظل يتطور تاريخياً. إلا أنه لم يلتحق بحقل النقد العربي القديم إلا في بعده النحوي كظرف (ظرف مكان)» ([2]).

و انطلاقاً من هنا بات علينا الاهتمام أكثر بمجالات الفضاء، لأنه ما كان « لعلم الإنسان أن يرفع مشعل الحياة للفضاء و في آن واحد ينكر، إلى أن يحقر ما نشرته تلك الحياة من معرفة محققة لكي توفق ذلك العلم بنفسه»([3])، ذلك أن المعرفة التي يشتمل عليها العلم المحقق دائماً قائمة على اجتهادات الإنسان و علاقاته التي « يمارسها مع ظاهرات طبيعية سواء أكانت في داخله أو في خارجه، في متناول حواسه أو تتجاوزها، و سواء أكان هو خاضعاً لعملها أو كان يستخدمها وإن كان لم يعرف منها أحياناً إلا النتائج و يكتشفها كما هي أو يقمعها حسب هواه و ذلك إن لم يختلقها من كل عنصر»([4])، و منه فإن علاقة الإنسان بالفضاء علاقة ملغزة، إذ إننا لا نعيش فقط في الفضاء الذي يحيط بنا (الفضاء الذي نسميه عادة بالواقع)، و لكننا نجد أن «كل واحد منا يخلق له فضاءاته الخاصة، و لما كانت علاقة الفضاء بالزمان وثيقة إلى الحد الذي يصعب التمييز بينهما، فإننا نعيش، في آن واحد، أزمنة و فضاءات متعددة (الحلم، الذاكرة، التخيّل، الاستيهام،،،)»([5]).

و قد أكد حسن نجمي أن الفضاء من الوجهة الفلسفية، سابق للأمكنة و أن الأمكنة هي التي تأتي بعد ذلك لتجد لها حيزاً في هذا الفضاء، لأنه حسب مفهومه أكثر انفلاتا و شساعة من هذه التحديدات الضيقة، و هو ما برهن عليه بفضاء الحلم، و الموت، و الذاكرة و الهوية. و إذا تطلب الأمر فصل الفضاء عن المكان، فإنه من الأفضل ألا نلح على المكان كثيراً، بل الأفضل أن

---

[1] – حسن نجمي، شعرية الفضاء، م، س، ص: 36.

[2] – المرجع نفسه، ص: 37.

[3] – عبد الرحمن بوشامة، عظمة الوحدة، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، دط، 1984، ص: 18.

[4] – المرجع نفسه، ص: 31.

[5] – سعيد يقطين، النص المترابط و مستقبل الثقافة العربية (نحو كتابة عربية رقمية)، المركز الثقافي العربي،المغرب،ط1،2008،ص:32.

نكتفي بتشغيل الفضاء، و التركيز عليه على امتداد الدراسة و لا نذكر المكان إلا حيث ينبغي أن يذكر. المكان الذي شوهت ترجمات عربية كثيرة خصوصياته و مميزاته عن الفضاء، و هو ما يجعل دراستنا تبذل الجهد الكبير لتصحيحه و التدقيق فيه.

5- وظيفة الفضاء:

يجتهد "جوزيف. إ. كيسنر" في تقديم جملة من العناصر الفضائية التي تقوم بضبط الرواية، ومن هذه العناصر نجد وجهة النظر، و الخط، و المستوى، و المشهد و خلق الشخصيات الروائية، و الشكل الوظيفي؛ كل هذه العناصر مشتقة من الفنون الفضائية التصويرية، و النحتية، و المعمارية على التوالي، و أضاف "بول دي مان" مفهوماً أخر، ألا و هو الفعل التأويلي الذي هو في حد ذاته فضائي، و الذي لا يمكنه تجاهل العناصر الفضائية الأخرى، و منه فالفضاء عند "بول دي مان" لا يعني الجامد و لكن يعني الكلي([1]).

و بعد هذه التحديدات يمكن القول: إن ثمة أربع وظائف للفضاء في الرواية، حسب ما قدمه لنا "جوزيف. إ. كيسنر" في كتابه "شعرية الفضاء الروائي"، و هي:

1- وظائف الفضاء من حيث هو إيهام ثانوي([*]) فعال في النص، و واسطة عبرها تتحقق الخصائص الفضائية في الفن الزمني.
2- أما الوظيفة الثانية فنجدها من خلال الأنواع الهندسية، كالنقطة، و الخط، و المستوى، و المسافة.
3- في حين نجد الوظيفة الثالثة تكمن في علاقة الرواية بالفنون الفضائية، كالرسم، والنحت، و فن العمارة.
4- أما الوظيفة الرابعة فتتمثل في تأثير الفضائية على الفعل التأويلي.

6- تطور مصطلح المكان:

هناك ضرورة ملحة تدفعنا إلى التمييز بين المكان في الرواية، و المكان باعتباره فضاء.

[1] – ينظر جوزيف. إ . كيسنر، شعرية الفضاء الروائي، م، س، صص: 28-30.

[*]– إن الإيهام الثانوي للرواية عامل فضائي محايث في الفن الزمني للرواية الذي عبره ينتج التحقق المكتمل للشكل، و من ثمة فإن "ثانوي" لفظ اسمي ضمن هذا السياق، و ليس تقييمياً. و بالمثل "فالإيهام"، رغم كونه متعذراً إزالته من معجم الجماليات، إلا أنه يعطي إيحاء بعامل خالص في الفنون،ولما كان الفضاء وظيفة،فالوظائف الفضائية خاصيات في الرواية وليست تناظرات.ينظر المرجع نفسه،ص:26.

إن تطور الأحداث «يفترض بلا شك تعدد الأمكنة و اتساعها، أو تقلصها، و يكون تبعاً لطبيعة الموضوع، لذلك لا يمكن أن نتحدث عن مكان واحد في هذا النوع الأدبي إذ إن صور المكان الواحد تتنوع حسب زاوية النظر التي يلتقط منها»([1])، و بالتالي فهذا التعدد، و هذا التنوع هو ما يطلق عليه اسم الفضاء باعتباره أوسع و أشمل من الدلالة الثابتة للمكان، من هنا يصبح المكان عنصراً مكوناً للفضاء، لأن الفضاء بحاجة على الدوام للمكان، حيث لا يمكن النظر إلى المكان نظرة عادية، و إنما هو أيضا مكان ثقافي؛ أي أن الإنسان يحوّل معطيات الواقع المحسوس وينظمها لا من خلال توظيفها المادي المعيشي فقط، بل من خلال إدخالها في نظام اللغة؛ فاللغة هي المقابل اللامحسوس لعالم المحسوسات، و هي تنوب عن عالم الواقع و تحل محله و هذه العملية ليست عملية سلبية أو بريئة، و لكنها مشبّعة بالقيمة، فالأشياء تسمى و لكن في الوقت ذاته حاملة لدلالات إيجابية أو سلبية»([2])، و لهذا نجد أن مفهوم الفضاء يتسع «ليشمل البيئة الطبيعية، والصناعية بمختلف أنماطها و وظائفها، و الشوارع، و الأماكن التي تعيش فيها الشخصيات الروائية، كما يشمل الوقت من النوم، و ما يترتب عن هذا الوقت من أضواء أو ظلمة أو طقس، بكل أحواله والأصوات، و الروائح (...). و نظراً للالتباس الذي قد يقع بين مصطلحي الفضاء والمكان نقول: إن الفضاء لا يعد عنصراً مجزءا فعلياً فهو موزع في شكل أمكنة»([3])، و من ثمة فإن مجموع هذه الأمكنة هو ما نطلق عليه اسم "فضاء الرواية"، علماً منا أن الفضاء أوسع من مفهوم كلمة "مكان"، ليصبح المكان مكوناً من مكونات الفضاء.

---

[1] - أوريدة عبود، المكان في القصة القصيرة الجزائرية الثورية، دار الأمل، الجزائر، دط، 2009، ص: 40.

[2] - المرجع نفسه، ص: 42.

[3] - فيصل الأحمر، معجم السيميائيات، م، س، ص: 125.